النثيرة(21): تجربة أم بديل؟

هل النثيرة تجربة أم بديل حضاري؟

لا يشك روادها في أنها بديل حضاري لكل صور الجمود والتقليد.. الخ. غير أن هذا الرأي صار يثير كثيرا من ردود الفعل العنيفة المفعمة بالسخرية أحيانا، كما يشم من عبارة الناقد نجيب العوفي حين قال إنه لا يعترض على تجربة قصيدة النثر، ولا وجه لتجاهلها فهي موجودة منذ العصر الجاهلي والإسلامي على شرط ألا تأخذها العزة بنفسها (ثم رجع وصرح): بالإثم) فتدعي أنها بديل لقصيدة الشعر(22). وهذا الرأي يصادي رأي الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي المعبر عنه حديثا؛ فجوابا عن سؤال في الموضوع قال: "أنا أقبلها عندما تكون تجربة، وأرفضها تماما إذا تصور البعض أنها أفضل الأشكال أو أكثرها حداثة، لأنها في هذه الحالة تصبح وباء كاسحا، إنها شكل يعتمد على لغة فقيرة من ناحية المعجم بسيطة ساذجة من ناحية التركيب، نثرية من ناحية الإيقاع"(23).

يمكن اعتبار المرحلة التي يمر بها إيقاع القصيدة العربية، بعد تحول الحس الشعري عن البيت المنتظم، بأنها مرحلة انتقالية بمعنى الكلمة. فلا أحد يستطيع، أم يملك مشروعية، وضع نقطة نهاية للتحولات الممكنة.

هل نوجد الآن عند المطلوب أو دونه أو تجاوزناه إلى تجريب غير مجد ينبغي التراجع عنه؟

غامرت نازك الملائكة مع جماعة من الرواد ثم توقفت نظريا تحذر من مغبة التمادي في تكسير أنساق الإيقاع العربي، مطالبة بالمحافظة، في حد أدنى، على الشطر(24). ثم جاء من يقول إن الحد الأدنى الممكن ليس الشطر بل التفعيلة والجو العلم للوزن(25). ثم جاءت قصيدة النثر تتخلى عن التفعيلة نفسها باعتبارها امتدادا للعروض القديم.

ليس من حق أحد أن يرسم حدودا، ولكن من حق كل واحد أن يبدي مخاوفه وأن يتخيل السيناريوهات الممكنة. حتى التراجعات والمحاسبات العنيفة مطلوبة. فحين يقول نزار قباني:

"الشعر الحديث واقع في أزمة ثقة مع الناس فقد رمى نفسه من الطابق التاسع والتسعين للقصيدة القديمة ولا يزال عالقا بين السماء السابعة والأرض. إننا نطلب من الشاعر الحديث أن يكون طبيعيا لأن النتاج الذي نقرأه اليوم هو ضد الطبيعة وضد نفسه وضد النظام الشعري"(26). فإننا نحتاج إلى قامة مثل قامته لتقول العكس، وتكون حداثية أي قادرة على الحضور في اللحظة التاريخية وإلا بقيت تجريبا، للمستقبل أن يقول فيه كلمته. وحين يطلب شاعر ومبدع بحجم جبرا إبراهيم جبرا من الشعر أن يبقى في ساحة القارئ ليبقى القارئ في ساحته(27)، وحين لا يجد ناقد مثل إحسان عباس في القصيدة الحديثة شحنة تشده إليها(28)، وحين وحين.. لا يحرك الشعر أحدا فإن الأمر يتطلب إعادة النظر. إن هذا الوضع هو الذي سمح لأحمد المعداوي بأن يستخلص بأن القصيدة الحديثة قد فشلت فشلا ذريعا وذلك بعد أن تخلى عنها أكابر روادها مثل الماغوط الذي توجه إلى المسرح، وجبرا إبراهيم جبرا الذي توجه إلى الرواية. كما يستخلص أن العودة إلى قصيدة النثر ما هي إلا أحد خيارين لإنقاذها. والخيار الآخر هو المراهنة على الفضاء البصري: "إن الاختيارين معا لم يتبلورا بعد بالقدر الكافي، ومن ثم فإن اعتبارهما مرحلة ثابتة من مراحل تطور البنية الإيقاعية الجديدة سابق لأوانه"(29).